فَنُّ الاعْتِذَارِ عِنْدَ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ وَالمُتَنَبِّي مُوَازَنَةٌ نَقْدِيَّةٌ بِنَظْرَةٍ حَدِيثَةٍ

د. أرْوَى أنْوَر عَبْد الحَمِيد

المُقَدِّمَةُ

لَطَالَمَا شَغَفَنِيْ الإرْثُ الأَدَبِيُّ الَّذِي جَادَ بِه الشُّعَرَاءُ العَرَبُ -فِي العُصُورِ المُخْتَلِفَةِ مُتَمَثِّلًا بِأَرْوَعِ القَصَائِدِ الَّتِي أَثْرَت الأَدَبَ العَرَبِيَّ، وَرَفَدَتْ مُتَذَوِّقِيْه، وَمُرِيْدِيْه، وَكَيْفَ اسْتَطَاعَت العَرَبِيَّةُ الإحَاطَةَ بِمَا تَجُوْلُ بِه الخَوَاطِرُ، فِي كُلِّ زَمَنٍ مِنَ الأزْمِنَةِ، وَفِي كُلِّ بِيئَةٍ مِنَ البِيئَاتِ. وَإِنَّمَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى عَظَمَةِ هَذِهِ اللُّغَةِ، وَقُدْرَتِهَا عَلَى اسْتِيْعَابِ المَعَانِيْ، وَسِعَةِ أُفُقِهَا، وَتَجَدُّدِ إِبْدَاعِهَا.

وَقَدْ تَنَاوَلْتُ -فِي بَحْثِي هَذَا- مَوْضُوْعَ الاعْتِذَارِ وَالعِتَابِ مِنَ المَمْدُوْحِ. فَمُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ وَالشُّعَرَاءُ يَتَزَاحَمُونَ عَلَى أَبْوَابِ المُلُوكِ وَالخُلَفَاءِ؛ ابْتِغَاءَ نَوَالِ الهِبَاتِ وَالعَطَايَا، وَيَخْتَارُ المَلِكُ شَاعِرًا مِنْ بَيْنِهِمْ؛ لِيُصْبِحَ نَدِيْمَهُ وَمُؤْنِسَهُ، وَيَظَلُّ يَرُوحُ وَيَغْدُو أَيَّانَ سَارَ مَمْدُوْحُهُ، وَلَكِنْ لا بُدَّ أَنْ يَتَبَدَّلَ الحَالُ؛ لأَنَّ بَعْضَ طَبَائِعِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ بُغْضُ مَنْ يَسْبِقُهَا أَوْ يَكُونُ أَوْفَرَ حَظًّا مِنْهَا، فَيَتَعَرَّضُ الشَّاعِرُ المَحْسُودُ لِلنَّقْدِ وَالمُعَادَاةِ وَالدَّسِّ، وَبِيئَةُ المُلُوكِ فِي الغَالِبِ- تَحْتَمِلُ التَّشْكِيكَ فِي الوَلاءِ، فَتَسْتَمِعُ إِلَى مَا يَهْمِسُ بِهِ الوَاشُونَ.

فَآثَرْتُ المُوَازَنَةَ بَيْنَ شَاعِرَيْنِ عَظِيْمَيْنِ، يُعَدُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَارِسَ عَصْرِهِ، شَاعِرَيْنِ طَمُوْحَيْنِ لَقِيَا النَّعِيْمَ وَالرِّضَا مِنَ المَمْدُوْحِ، ثُمَّ كَانَ نَصِيْبَهُمَا الشَّرُّ وَالمِحْنَةُ بَعْدَ أَنْ غَضِبَ المَمْدُوحُ. الأَوَّلُ هُوَ الشَّاعِرُ الجَاهِلِيُّ الَّذِيْ عَدَّهُ بَعْضُ الرُّوَاةِ مِنْ أَصْحَابِ المُعَلَّقَاتِ، وَهُوَ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ، "أَحَدُ الأَشْرَافِ الَّذِيْ غَضَّ الشِّعْرُ مِنْهُم، وَهُوَ مِنَ الطَّبَقَةِ الأُوْلَى المُقَدَّمِينَ عَلَى سَائِرِ الشُّعَرَاءِ"(١)، فَقَدْ عَدَّهُ ابْنُ سَلَّامٍ بَعْدَ امْرِئِ القَيْسِ، وَقَبْلَ زُهَيْرٍ وَالأَعْشَى. وَكَذَلِكَ فَعَلَ البَطَلْيُوسِيُّ صَاحِبُ شَرْحِ الأَشْعَارِ السِّتَّةِ. وَالثَّانِي: المُتَنَبِّي مَالِئُ الدُّنْيَا، وَشَاغِلُ النَّاسِ، الَّذِيْ لا يَكَادُ يَخْلُو كِتَابٌ مِنْ كُتُبِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ مِنْ ذِكْرِهِ، وَهُوَ الشَّاعِرُ الشُّجَاعُ الطَّمُوحُ الَّذِيْ يَبْغِي المَجْدَ وَالسُّؤْدَدَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنَلْ غَايَتَهُ. فَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ بِيْئَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا تَخْتَلِفُ عَنْ بِيْئَةِ الآخَرِ؛ إِذْ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا نَحْوٌ مِنْ خَمْسَةِ قُرُوْنٍ، لَكِنَّنِيْ ارْتَأَيْتُ المُوَازَنَةَ بَيْنَهُمَا؛ لأَنَّهُمَا يَتَشَابَهَانِ فِي أَنَّهُمَا كَسَبَا أَلْوَانَ النَّعِيْمِ، وَاسْتَمْتَعَا بِالخَيْرِ وَالحَظْوَةِ مُدَّةً تَحْتَ ظِلِّ المَمْدُوحِ، ثُمَّ تَعَرَّضَا لِلْمَهَانَةِ وَالعُنْفِ وَالتَّهْدِيْدِ مِنْهُ.

وَقَدْ وَازَنْتُ بَيْنَ الشَّاعِرَيْنِ فِي اعْتِذَارِهِمَا مِنَ المَلِكَيْنِ: النُّعْمَانِ بْنِ المُنْذِرِ وَسَيْفِ الدَّوْلَةِ الحَمْدَانِيِّ، فِي إِحْدَى قَصَائِدِ كُلٍّ مِنْهُمَا، مُبَيِّنَةً السِّمَاتِ الفَنِّيَّةَ، وَاللُّغَةَ الشِّعْرِيَّةَ لَهُمَا، مِمَّا يُثْبِتُ -بِحَقٍّ- غِنَى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَعَظَمَتَهَا، وَمُطَاوَعَةَ أَلْفَاظِهَا المَعَانِي.

وَقَسَّمْتُ بَحْثِي عَلَى ثَلاثَةِ مَبَاحِثَ، أَوَّلُهَا فِي مَعْنَى الاعْتِذَارِ وَالعِتَابِ فِي اللُّغَةِ، وَالأَنْمَاطِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِيْ عُرِفَ بِهَا، وَالدَّلالَةِ عَلَيْهِ. أَمَّا المَبْحَثُ الثَّانِي، فَكَانَ فِي أَوْجُهِ الشَّبَهِ وَالخِلافِ بَيْنَ الشَّاعِرَيْنِ النَّابِغَةِ وَالمُتَنَبِّي، وَعَلاقَتِهِمَا بِالمَمْدُوحِ، وَأَثَرِ البِيْئَةِ فِي تَوْظِيْفِ لُغَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا. وَتَطَرَّقْتُ فِي المَبْحَثِ الثَّالِثِ إِلَى المُوَازَنَةِ الفَنِّيَّةِ بَيْنَ القَصِيْدَتَيْنِ، وَمَا تَمَيَّزَتْ بِهِ كُلٌّ مِنْهُمَا مِنْ صُوَرٍ فَنِّيَّةٍ، وَإِبْدَاعَاتٍ بَلاغِيَّةٍ عَالِيَةٍ، وَمُوْسِيْقَى شِعْرِيَّةٍ مُتَمَثِّلَةٍ بِالوَزْنِ وَالقَافِيَةِ، وَالتَّنْغِيْمِ الدَّاخِلِيِّ لِلأَبْيَاتِ، آخِذَةً ذَلِكَ بِالتَّحْلِيلِ وَالعَرْضِ المُفَصَّلِ.

وَقَدْ اتَّبَعْتُ -فِي هَذَا البَحْثِ- مَنْهَجًا تَطْبِيْقِيًّا نَقْدِيًّا تَحْلِيْلِيًّا، وَقَدَّمْتُ -لِمَبَاحِثِهِ- بِمُقَدِّمَةٍ عَرَضْتُ -فِيهَا- أَهَمِّيَّةَ المَوْضُوْعِ، وَخُطَّةَ البَحْثِ، وَأَلْحَقْتُهَا بِخَاتِمَةٍ ذَكَرْتُ -فِيهَا- أَهَمَّ النَّتَائِجِ المُتَوَصَّلِ إِلَيْهَا، وَالسُّبُلَ فِي الاعْتِذَارِ بِالشِّعْرِ، وَمَدَى التَّشَابُهِ، عَلَى مَرِّ العُصُوْرِ. ثُمَّ أَلْحَقْتُهَا بِقَائِمَةٍ بِجَرِيْدَةِ مَضَانِّ البَحْثِ.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

الاعْتِذَارُ وَالعِتَابُ فِي اللُّغَةِ وَالاصْطِلاحِ

لَقَدْ وَجَدْتُ شَبَهًا كَبِيرًا بَيْنَ الاعْتِذَارِ وَالعِتَابِ، فَتَقَارَبَت المَعَانِي وَالأَسَالِيبُ بَيْنَ شِعْرِ العِتَابِ وَالاعْتِذَارِ، حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَكُونَ مُكَرَّرَةً؛ لِذَا ارْتَأَيْتُ أَنْ أَطْرُقَ المَعْنَيَيْنِ فِي آنٍ وَاحِدٍ.

فَقَدْ وَرَدَ لَفْظُ (عَذَرَ) بِصِيَغٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهَا: عَذَرَ فُلانٌ عُذْرًا، أَيْ: كَثُرَتْ ذُنُوبُهُ

وَعُيُوبُهُ. واعْتَذَرَ إليْه، أيْ: طَلَبَ قَبُولَ مَعْذِرَته. ويُقَالَ اعْتَذَرَ من ذَنْبه، واعْتَذَرَ عَن فعْله، أي: تَنَصَّلَ، واحْتَجَّ لنَفْسه. وَمَا يَعْنِيْنَا هو رَفْعُ اللَّوْم أو الذَّنْب أو قَبُولُ العُذْر(٢).

وَجَاءَ أنَّ أصْلَ العذر إزالةُ الشّيء عن جهَته، فإنَّ أبَا هلالٍ العَسكريَّ فَرّقَ بَيْنَ التَّوبَة وبينَ الاعْتذَار، فالتَّائبُ مُقرٌّ بالذَّنْب الَّذي يَتُوبُ منهُ، مُعترفٌ بعَدَم عُذْره فيه. والمُعتَذرُ يَذكُرُ أنّ لَهُ فيمَا أتَاهُ من المَكْرُوه عُذْرًا؛ لهذا يُقَالَ مَنْ عَذيري منْ فُلَان. وتَأويلُهُ مَنْ يأتيني بعُذْر منْه(٣).

وَقَدْ وَرَدَ فِي القُرْآن الكَريم: ((لا تَعْتَذرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إيمَانكُمْ))(٤)، و((وَلا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذرُونَ)) (٥).

وَيُرْوَى عَن الرَّسُول -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسلَّمَ- أنَّهُ قَالَ: "وَلا أحَدَ أحَبُّ إلَيْه العُذْرُ منْ اللّه وَمنْ أجْل ذَلكَ بَعَثَ المُبَشّرينَ وَالمُنْذرينَ"(٦)، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب -رَضيَ اللهُ عَنْهُ-: "لا تَلُمْ أخَاكَ عَلَى مَا يَكُونُ العُذْرُ فِي مثْله"(٧)، وقَالَ الحَسَنُ بْنُ عَليٍّ -رَضيَ اللّه عَنْهُمَا-: "لَوْ أنَّ رَجُلًا شَتَمَني في أُذُني هَذه وَاعْتَذَرَ إلَيَّ فِي أُذُني الأُخْرَى لَقَبلْتُ عُذْرَهُ"(٨). وَقَالَ الأَحْنَفُ: "إنْ اعْتَذَرَ إلَيْكَ مُعْتَذرٌ تَلَقَّهُ بالْبشْر"(٩).

وَقَالَ الشَّاعرُ(١٠):

اقْبَلْ مَعَاذيرَ مَنْ يَأْتيكَ مُعْتَذرَا
إنْ بَرَّ عنْدَكَ فيمَا قَالَ أوْ فَجَرَا
فَقَدْ أطَاعَكَ مَنْ يُرْضيكَ ظَاهرُهُ
وَقَدْ أجَلَّكَ مَنْ يَعْصيكَ مُسْتَترَا

وقيْلَ: "مَنْ وُفِّقَ لحُسْن الاعْتذَار خَرَجَ منْ الذَّنْب، وقيْلَ: "اعْتذَارُ مَنْ يَمْنَعُ خَيْرٌ منْ وَعْد مَمْطُول"(١١).

أمَّا فِي الاصطلاح، فَهُوَ انتقَالُ الدّلالَة المَعْنَويَّة لأيَّة كَلمَة منْ مَعْنَاهَا العَامّ إلَى الخَاصّ، مَعَ وُجُود القَرينَة سَوَاءٌ قَريبَةً أم بَعيدَةً. والدّلالَةُ المَعْنَويَّةُ تَقْتَربُ من الدَّلالة الاصْطلاحيَّة. والاعْتذَارُ بالشّعْر عُرْفٌ اجتمَاعيٌّ يُقرُّهُ المُجْتَمَعُ القَبَليُّ قَبْلَ الإسْلَام، وَيُقرُّهُ الدّينُ الإسْلاميُّ؛ لأنَّهُ خلَافُ الهجَاء والاقذاع.

"والاعْتذَاريَّاتُ أخَذَتْ شَكلاً آخَرَ بَعدَ التَّدوين؛ لكَونهَا بَدَتْ حُكْمًا نَقْديًّا، وتَعبيرًا فَنّيًّا مَحمُودًا جَاءَ على شَكل قَصيدَة أو مَقْطُوعَة؛ ليُجَسّدَ هَوَاجسَ نَفس الشَّاعر إزاءَ مَوقف مُعَيَّن، وَليُكَفّرَ عَمَّا نُسبَ إلَيه، سَوَاءٌ كَانَ صدْقًا أمْ كَذبا(١٢).

أمَّا العتَابُ، فَهُوَ فَنٌّ حَضَريٌّ يَزْدَهرُ نَثْرًا وَشعْرًا، مَعَ الاستقْرَار بَينَ أفرَاد المُجْتَمَع؛ لذا لا نَجدُهُ يَحْتَلُّ مَكَانًا بَارزًا فِي الشّعْر الجَاهليّ.

والعتَابُ -فِي اللُّغَة- من (عَتَبَ -عَليه- عَتَبًا، وعتَابًا، وَتَعْتَابًا، ومَعْتَبًا، وَمَعْتَبَةً)، أيْ: لامَهُ وَخَاطَبَهُ الإدلالَ؛ طالبًا حُسْنَ مُرَاجَعَته، وَمُذَكّرًا إيَّاهُ بمَا كَرهَهُ منْهُ، والبَابُ عَتَبَ: وَطئَ عُتْبَتَهُ. يُقَالُ مَا عَتَبْتُ بَابَ فُلان. واعْتَبَهُ: أرضَاهُ بَعدَ العتَاب، وفِي المَثَل "مَا مُسيءٌ مَن أعْتَبَ". والعُتْبَى الرّضَا، يقَالَ: يُعاتبُ من تُرْجَى - عنْدَهُ- العُتْبَى. وأُريدَ من العتب: أنكرَ شيئًا من فعْله، أيْ: لامَهُ(١٣).

والعتَابُ (فَنٌّ وجْدَانيٌّ ذُو مَجْرَيَيْن: شعْريٌّ، وَنَثْريٌّ. وَقَدْ عُرفَ فِي الشّعْر العَرَبيّ مُنْذُ العَصْر الجَاهليّ. وَهُوَ أقْدَمُ من الاعْتذَار؛ لأنَّ العتَابَ -بمَا يَتَضَمَّنُ منْ لَوْم وَاسْتنْكَار لمَا يُعَكّرُ صَفْوَ المَوَدَّة- لا يَغُضُّ منْ شَأن الشَّاعر بَيْنَ أفْرَاد قَبيلَته، كَمَا نَجدُهُ فِي الاعْتذَار الَّذيْ يَتَضَمَّنُ عنْدَهُم مَعْنَى الضَّعْف)(١٤)، والعتَابُ غَرَضٌ شعْريٌّ يَضَعُ الشَّاعرَ فِي مَوقف حَرج، يَحتَاجُ إلَى بَرَاعَة وَجَدَارَة وَحيطَة؛ لكَي يَجْعَلَ عتَابَهُ مُتَوَازيًا بَينَ عَوَاطفه وَعَوَاطف المُعَاتَب. وَتَخْتَلفُ طَرَائقُ الاعْتذَار وَالعتَاب باخْتلَاف أسَاليب الشُّعَرَاء، فَمنهُمْ مَنْ يَميلُ إلَى الاستعطَاف، وَمنهُمْ مَنْ يَميلُ إلَى الاحتجَاج والانْتصَاف، وَهَذَا مَا سَنَرَاهُ عنْدَ المُتَنَبّي. ومن ﴿هُم مَنْ يَتَوَسَّطُ الاثْنَين؛ فَيَكُونُ جَامعًا للاحْتجَاج وَاللَّوم مَعَ التَّوَسُّل والاسْتعْطَاف الصَّريح، مثْلَمَا هي الحَالُ مَعَ أبي فرَاس الحَمدَانيّ.

أمَّا أسبَابُ الاعْتذَار، فَتَعَدَّدَتْ باختلَاف الأفرَاد وَالجَمَاعَات فِي بيئَاتهم وَعُصُورهم، وَيُمكنُ جَعْلُهَا الخَوْفَ منَ العُقُوبَة، والرَّغْبَة فِي تَحقيق الطُّمُوح والإبَاء.

والاعْتذَارُ نَوْعٌ من دَفْع الأذَى عَن النَّفْس، فَفيه جَانبٌ أخْلَاقيٌّ يَدعُو الإنْسَانَ إلَى تَخْليص نَفْسه من الأذَى، وَمُحَاسَبَة نَفْسه على مَا تَأتيه من أعْمَال.

ويُعَدُّ عَديُّ بنُ زَيد العبَاديُّ رَائدَ الاعْتذَار فِي الشّعْر العَرَبيّ، وَهُوَ السَّابقُ بهَذَا اللَّون من الشّعْر الوجْدَانيّ، وَيَأتي النَّابغَةُ الذُّبيَانيُّ بَعْدَ عَديّ فِي هَذا الفَنّ، وإنْ كَانَتْ اعْتذَاريَّاتُ النَّابغَة قد شَاعَتْ شُيُوعًا بَينَ النَّاس، فَمَا ذُكرَ اسمُهُ إلَّا ذُكرَتْ اعْتذاريَّاتُهُ مَعَهُ.

وأخيرًا نَقُولُ إنَّ هُنَاكَ نَزْرًا يَسيرًا بَيْنَ المَعْنَيَيْن: الاعْتذَارُ والعتَابُ، فإنَّني من أنْصَار أبي هلال العَسْكَريّ؛ إذْ لا تَرَادُفَ فِي اللُّغَة، فَلكُلّ لَفْظ مَعْنَاهُ وَمَبْنَاهُ، وإنْ وُجدَ شَبَهٌ فهو يَسيرٌ جدًّا، وَهَذَا مَا لاحَظْنَاهُ فِي لَفْظَيْ العُذْر وَالعُتْب؛ فَالمَنْشُودُ -منْهُمَا- مُسَامَحَةُ شَخْص أخْطأ فِي حَقّه، ورَجَاءُ قَبُول العُذْر.

المَبْحَثُ الثّاني
أَوْجُهُ الشَّبَه وَالخِلاف بَيْنَ الشَّاعِرَيْن النَّابغَة وَالمُتَنَبِّي

تُعَدُّ قَصَائِدُ النَّابِغَة الذُّبْيَانيِّ من الاعْتذاريَّات، أَمَّا قَصَائِدُ المُتَنَبِّي، فَهِيَ من بَاب العِتَاب، وَقَدْ يَستوقفُنَا الاختلافُ الكَبِيرُ بَيْنَ زَمَنَيْ الشَّاعِرَين وَمَكَانَيهِمَا؛ إِذْ إِنَّ مَا يَقْرُبُ من الخَمسَة قُرُون تَفْصِلُ بَينَهُمَا، فَكَانَتْ حَيَاةُ النَّابِغَة في أوائل القَرن الأَوَّل قَبلَ الهِجْرَة، أَمَّا المُتَنَبِّي، فَعَاشَ في أَوَاسط القَرن الرَّابع بَعدَ الهِجْرَة؛ لذا سَتَكُونُ الخلافَاتُ كَثِيرَةً، أَوَّلُهَا حَيَاةُ الشَّاعرين، فَالغُمُوضُ يُحيطُ بِحَيَاة النَّابِغَة، فَلَمْ نَعْرفْ أَوْلادَهُ، وَلا زَوْجَهُ، ولا مِهْنَةَ وَالده، واختَلَفَ الرُّوَاةُ في سَنَة وَفَاته "فَقَدْ غَفَلَ التَّاريخُ عَنْ ذِكْرِ مِيلادِه، وَلَمْ يَذْكُرْهُ إلّا وَهوَ شَاعِرٌ مِلءَ الأَفْوَاهِ والأَسْمَاع"(١٥).

والعِلْمُ يُحيطُ حَيَاةَ المُتَنَبِّي، فإنَّنَا نَعْرِفُ الكَثِيرَ عَنْهُ ولا سِيَّمَا حَيَاته، وإنْ كَانَ المُتَنَبِّي نَشَأَ في بَيْت وَضِيع مَغْمُور، وإنَّ أسرَتَهُ من أروقة وَاطِئَة، فَوَالِدُهُ سَقَّاءٌ(١٦) إلّا أَنَّهُ غَدَا من أَعَاظِم شُعَرَاء العَرَبيّة. في حين أنَّ النَّابِغَة مَعدُودٌ من أَشْرَاف قَومه، وَكَانَتْ لَهُ وَجَاهَةٌ وَشَفَاعَةٌ عندَ المُلُوك، وَكَانَ مَلْجَأً لقَومه، وخيرتُهُم في مُهِمَّات أُمُورِهم وَحُرُوبِهم(١٧).

وَيختَلفُ الشَّاعران في عَدَد أَبْيَات الشِّعْر الَّتِيْ قَالَهَا كُلٌّ منهُمَا في مَمْدُوحِه، فالنَّابِغَة لَهُ في "قَصَائد الحِيرَة سَبْعٌ، قِيلَتْ جَميعُهَا بَعْدَ غَضَب النُّعْمَان بن المُنذر، وَلَيْسَ في الدِّيوَان قَصِيدَةٌ وَاحِدَةٌ قِيلَتْ في العَهْد الَّذِيْ كَانَ فيه النَّابِغَةُ قَريبًا من النُّعْمَان يُصْفيه الوِدَّ، وَيُخْلِصُ -لَهُ- الصَّدَاقَةَ"(١٨).

وَقَدْ أَحْصَيْتُ عَدَدَ أَبْيَات تلكَ القَصَائد، فَوَجَدْتُهَا لا تَزيدُ على مِئَتَيْ بَيْت، في حين أنَّ "من المَعلُوم أَنَّ دِيوَانَ المُتَنَبِّي يَجْمَعُ خَمْسَةَ آلاف، وَمِئَةً وَثَلاثَةً وَسَبْعِينَ بَيْتًا،... والسَّيفيَّاتُ -منْهَا- أَلفٌ وخَمسُمئة وأربعُونَ بيتا"(١٩).

ولَعَلَّ السَّبَبَ -في قلة أَبْيَات النَّابِغَة- "أَنَّ طُولَ العَهْد بَيْنَ قَائله وَرَاويه يَدْعُو إِلَى شَيْء من هَذَا، ولا سِيَّمَا وَهْوَ يُرْوَى من الذَّاكِرَة، وَهَذا شَأْنُ الأَدَب القَدْيم كُلّه"(٢٠).

أَمَّا شِعْرُ المُتَنَبِّي، فإنَّهُ قد يُخْتَلَفُ في رِوَايَة بَعْض أَبْيَاته في كَلمَة من البيت أو أكثر عن الرِّوَايَة المَأْلُوفَة في شُرُوح الوَاحديِّ والعُكْبُرِيِّ وأَمْثَالهمَا؛ ممَّا يَجْعَلُنَا نَحْصُلُ على روايَة جَديدَة، وتَتَجَلَّى مَلامحُ هَذه الرِّوَايَة بِوُضُوح؛ عِنْدَمَا نَجدُ التَّسلْسُلَ في أَبْيَات القَصيدَة الوَاحدَة مُختَلفًا عن تَسَلْسُلهَا في الشُّرُوح والرِّوَايَات، ونَجدُ تَسَلْسُلَ القَصَائد مُخْتَلفًا أَيْضًا(٢١)؛ لذَا يَخْتَلفُ الشَّاعران في عَدَد أَبْيَات الشِّعْر.

وَمن الاختلافَات الأُخْرَى الدِّينُ، فَالنَّابِغَةُ اخْتَلَفَت الأَقْوَالُ في ديَانَته، فَقيل: "كَانَتْ دِيَارُ ذُبْيَانَ تَحْتَ حُكْم مُلُوك الحِيْرَة، وَهُم أَتْبَاعٌ لمُلُوك فَارس، وَدينُهُمُ الشِّركُ أو المَجُوسيَّةُ"(٢٢). إلَّا إنَّ الرَّاهبَ لويس شيخُو اليَسُوعيّ "حَسبَهُ نَصْرَانيًّا، وَعَدَّهُ في شُعَرَاء نَجْد وَالحجَاز وَالعرَاق، الَّذِيْنَ كَانُوا يَدينُونَ بالنَّصْرَانيَّة"(٢٣).

أَمَّا المُتَنَبِّي -من الأقوال وَمَسيرَة حَيَاته- فَيَصحُّ -عنْدي- أَنَّ دِينَهُ الإِسْلَامُ، وأَنَّهُ كَانَ مُسْلمًا، إلَّا أَنَّ ديَانَتَهُ رَقيقَةٌ، وأَنْ عَدَّهُ ريجي بلاشير قُرْمطيًّا، أَوْ دَاعيَةً من دُعَاة القَرَامطَة. والحَقُّ أَنَّ البَاحثَ المَوْضُوعِيَّ لا يَستَطيعُ أَنْ يَقْطَعَ برَأيٍ في هَذا، وإنْ كَانَ طَه حُسَين عَميدَ الأدب العَرَبيِّ قد قَالَ "أَقْبَلَ الفتَى عَلَى بَغْدَادَ قرمطيًّا مُنهزمًا"(٢٤).

ولَعَلَّ السَّبَبَ -في اتِّهَامه هَذَا- ثَقَافَتُهُ، فالمُتَنَبِّي عَاشَ في العَصر العَبَّاسيِّ، عَصْر اتِّسَاع الحَضَارَة الإِسْلَاميَّة، وَعَصْر اتِّصَال العَرَب بثَقَافَات أُخْرَى، وَتَعَرُّفهم على حَضَارَات أُمَم قَديمَة، مثْلُ اليُونَان والفُرْس، وهو عَصْرُ تَجْديد في جَميع مَرَافق الحَيَاة، في حين لَمْ نَعْثُر على مَا يُشيرُ إِلَى ثَقَافَة النَّابِغَة، وَبِسَبَب هَذا الجَهْل عَن النَّابِغَة أَخشى أَنَّني سَأَظْلمُهُ، وهو الشَّاعرُ الكَبيرُ، وهو أَشْعَرُ العَرَب، بحَسْب مَا قَالَ ابنُ عَبَّاس، وأَبُو الأَسْوَد "وَقَدْ سُئلَ يُونُس بنُ حَبيب عَن أَشْعَر النَّاس، فَقَالَ لا أرمي إِلَى رَجُل بعَيْنه، ولَكنْ أَقُولُ امرُؤُ القَيس إذا رَكبَ (أَيْ ذَكَرَ الخَيْلَ)، والنَّابِغَةُ إِذَا رَهبَ، وزُهَيْرُ إذا رَغبَ، والأَعشَى إذا طَربَ"(٢٥).

وَكَانَ مُنْقَطعًا إِلَى مُلُوك الحيرَة، وَكَانَ كَبيرًا عنْدَ النُّعْمَان خَاصًّا به، وَكَانَ من أَهْل أُنْسه، إلَّا أَنَّهُ بسَبَب شعْره في المُتَجَرِّدَة زَوْجَة النُّعْمَان الَّتِيْ كَانَ أَوَّلُهَا:

أمنَ آلِ مَيّة رائحٌ، أو مُغْتَدِ
عجلانَ، ذَا زاد، وغيرَ مزود.

جَعَلَ النُّعْمَانَ يَغْضَبُ منْهُ، فَهَرَبَ، ثُمَّ بَدَأَ بأَشْعَاره الاعتذاريَّة. وَيَبْدُو أَنَّ النَّابِغَةَ لَمْ يَحْظَ بمَا حَظي به المُتَنَبِّي من اهتمَام الدَّارسينَ، وَنَقْد النَّاقدينَ، فَلَم أَستَطع أَنْ أُحْصيَ الكُتُبَ الَّتِيْ تَنَاوَلَتْ حَيَاتَهُ وَشعْرَهُ إلّا أَقَلَّ من عَشْرَة كُتُب، أَمَّا المُتَنَبِّي، فَقَدْ حَفلَت المَصَادرُ العَرَبيَّةُ والأَجْنَبيَّةُ بأَخْبَاره وَشعْره، حَتَّى بَلَغَ مَا مقْدَارُهُ منْهَا ألفا مرجع(٢٦).

وَوَجْهُ الشَّبَه بَيْنَ الشَّاعرَيْن -عَلَى الرَّغْم منَ الفَرْق الزَّمَنيِّ الواسع بَيْنَهُمَا

وَالبيئَة الَّتِيْ عَاشَا فيهَا- عَلاَقَتُهُمَا مَعَ مَمْدُوحَيْهِمَا، فَالنُّعْمَانُ "لَبِثَ إبَّانَ حُكْمِه يَرعَى الشُّعَرَاءَ غَايَةَ الرِّعَايَة، وَجَعَلَ الشُّعَرَاءَ يَتَوَافَدُونَ إليه كَمَا تَوَافَدُوا على أسْلافه، وَأَهَمُّ مَن وَفَدَ إلَيْه حَسَّانُ بنُ ثَابت، والأعْشَى وَلَبيد" (٢٧)، فَضْلًا عَن شَاعرنَا النَّابغَة الذُّبْيَانيِّ.

وَكَذَلكَ سَيْفُ الدَّوْلَة، فَقَدْ ظَفرَتْ إمَارَةُ بَني حَمْدَانَ بعنَايَة المُؤَرِّخينَ وَالبَاحثينَ، الَّذين أطْنَبُوا فِيْ وَصْف حَضَارَتهَا، وَثَقَافَتهَا، وَذكْر فُضَلائهَا، منهم الشُّعَرَاءُ: أَبُو فرَاس الحَمْدَانيُّ، وأَبُو بَكْر الصُّنَوْبريُّ، والسَّريُّ الرّفَاءُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أحْمَدَ الدِّمَشْقيُّ، وَمَحْمُودُ بنُ الحُسَين السِّنديُّ المَعرُوفُ كشاجم، وابنُ نُبَاتَه، وابْنُ كوجك، ومنَ العُلَمَاء الحُسَيْنُ بنُ خَالَوَيْه، وَعَبْدُ الوَاحد بنُ عَليٍّ المَعْرُوفُ بأَبِي الطَّيِّب اللُّغَويُّ، وأَبُو عَليٍّ الفَارِسيُّ، ومن الفَلَاسفَة الفَارَابيُّ (٢٨).

وقَدْ قَالَ النَّابغَةُ فِيْ النُّعْمَان:

فإنَّكَ شَمْسٌ، وَالمُلُوكُ كَوَاكبٌ
إذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ منْهُنَّ كَوْكَبُ.

وقَالَ المُتَنَبِّي فِيْ سَيْف الدَّوْلَة:

أُحِبُّكَ يا شَمْسَ الزمان وَبَدرَهُ
وَإنْ لامَني -فيْكَ- السُهَى والفَراقدُ.

فَهُمَا المَلكَان اللَّذان سَطَعَ ذكْرُهُمَا فِيْ العَالَم أجْمَعه، ولكنَّ حَسَدَ الحُسَّاد حَالَ بَيْنَ الشَّاعرَين وَبَيْنَهُمَا، فَقَدْ أفْلَحَ الوُشَاةُ فِيْ كَيْدهم، فَفَارَقَا مَمْدُوحَيهمَا، وَظَلَّ كلاهُمَا يَحنُّ إلَى عَهْد الرَّخَاء الَّذيْ كانَ فيه مَعَ المَمْدُوح، وَكُلٌّ منْهُمَا فِيْ ذَلكَ يَحْدُوهُ الطَّمَعُ، وَمَحَبَّةُ المَال.

فَعنْدَمَا سُئلَ أبو عَمْرو بن العَلَاء عَن سَبَب اعْتذَاريَّات النَّابغَة: أ قَالَهَا خَوْفًا أَمْ لِغَيْر ذَلكَ؟ قَالَ: "لا لَعَمْرُ الله لا لمَخَافَته فَعَلَ... وَلَكنَّهُ رَغبَ فِيْ عَطَايَاهُ وَعَصَافيره" (٢٩).

و"لا أُبَرِّئُ النَّابغَةَ من أنَّ مَحَبَّةَ المَال والرَّغْبَةَ فِيْ العَطَاء كَانَتْ من الدَّوَافع المُلحَّة، الَّتِيْ جَعَلَتْهُ يُكْثرُ من الاعْتذَار وَيُثْني على كَرَم النُّعْمَان" (٣٠).

ولَعَلَّ المُتَنَبِّي مثْلُهُ؛ إذْ "إنَّ المُتَنَبِّيَ كَانَ يَتَّخذُ الشِّعْرَ وَسيلَةً لا غَايَةً، وإنَّهُ كَانَ عَبْدًا للطَّمَع وَالمَال لا للجَمَال وَالفَنِّ" (٣١).

المَبْحَثُ الثَّالثُ
المُوَازَنَةُ النَّقْدِيَّةُ فِيْ قَصَائِد الشَّاعِرَيْن

حَفلَ ديْوَانُ النَّابغَة وَالمُتَنَبِّي بالشِّعْر الكَثير فِيْ مَمْدُوحَيْهمَا: النُّعْمَانُ وَسَيْفُ الدَّوْلَة، وَلَعَلَّ أَهَمَّ القَصَائد الَّتِيْ قيلَت فِيْ اعْتذَاريَّات النَّابغَة الَّتِيْ عَدَّهَا بَعْضُهُم مُعَلَّقَتَهُ (٣٢):

يَا دَارَ مَيَّةَ بالْعَلْيَاء، فَالسَّنَد
أَقْوَتْ، وَطَالَ -عَلَيْهَا- سَالفُ الأَبَد.

وَقَصيدَتُهُ الأولَى فِيْ تَسَلْسُل قَصَائد النَّابغَة الاعْتذَاريَّة فِيْ ديوَانه (٣٣):

أَتَاني أَبَيْتَ اللَعْنَ أَنَّكَ لُمْتَني
وَتلكَ الَّتي أَهْتَمُّ منْهَا وَأَنْصبُ.

وَقَصيْدَتُهُ (٣٤):

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بالجَمُومَين سَاهرًا
وَهَمَّيْن: هَمَّاً مُسْتَكنّاً وَظَاهرًا.

وَقَصيدَتُهُ العَيْنيّةُ الَّتِيْ مَطْلَعُهَا (٣٥):

عَفَا ذُو حُساً منْ فَرْتَنى، فالفَوَارعُ
فَجنبا أريك، فالتّلاعُ الدَّوافعُ.

ولاميَّتُهُ (٣٦):

أَمنْ ظَلاَّمةَ الدّمَنُ البَوَالي
بمُرْفَض الحُبَيّ إلى وُعَال؟

ولكنَّني ارتَأَيْتُ أَنْ أَقفَ عنْدَ قَصيدَته البَائيَّة الَّتِيْ قَالَ فيهَا (٣٧):

أَرَسْمًا جَديدًا منْ سُعَادَ تَجَنَّبُ
عَفَتْ رَوْضَةُ الأَجْدَاد منْهَا فَتَنْضَبُ

عفا آيَةُ ريحُ الجنُوب مَعَ الصَّبَا
وأسْحَم دَان مزنُهُ مُتَصَوِّبُ

فَلَمْ يَبْقَ إلّا آلُ خَيْم مُنَضَّد
وَسُفْعٌ علَى آس وَنُؤْيٌ مُعَثْلَبُ

وَأَبْدَتْ سوَارًا عَنْ وُشُوْم كَأَنَّهَا
بَقيَّةُ أَلْوَاح عَلَيْهنَّ مُذْهَبُ

كَأنَّ قتُودي والنّسوعُ جَرَى
بهَا مصكٌّ يُبَاري الجونَ جأبٌ معقربُ

رَعَى الرَّوْضَ حَتَّى نشت الغدرُ وَالْتَوَتْ
برجْلاتهَا قيْعَانُ شَرْج وأيْهَبُ

ديَارهُمُ إذْ هُمْ لأَهْلكَ جيْرَةٌ
وإذْ هيَ لا يُسْطَاعُ منْهَا التَّجَنُّبُ

ذَكَرْتُ سُعَادًا فَاعْتَرَتْنيْ صَبَابَةٌ
وَتَحْتيَ مثلُ الفَحْل وَجْنَاءُ ذعلبُ

مُذكَرّة تَنفي الحَصَى بمُثَلّم
لَهَا لاحبٌ بَادي المَسَافَة مخدبُ

أَتَاني وَعيدٌ، وَالتَّنَائفُ بَيْنَنَا
سَخَاويُهَا، وَالغَائطُ المُتَصَوِّبُ

فلم أَجدْ -فيمَا بَينَ يَدَيَّ من المَصَادر الَّتِيْ عَنَى مُؤَلِّفُوهَا بدرَاسَة شعْر النَّابغَة- أحداً قد أَوْلَى هذه القَصيدَةَ اهتمَامًا أَوْ شَرْحًا؛ لذَا وَقَفْتُ عنْدَهَا. وَلَعَلَّ السَّبَبَ أَنَّ كُلَّ المَعَاني الَّتِيْ جَاءَتْ فِيْ القَصيدَة مَأْلُوفَةٌ عنْدَ الشُّعَرَاء الجَاهليِّينَ. والبَعْضُ يَمْزجُ مَعَ هَذه القَصيدَة قَصيدَةً أُخْرَى، هي:

أَتَاني -أَبَيْتَ اللَعْنَ- أَنَّكَ لُمْتَني
وَتلْكَ الَّتيْ أَهْتَمُّ منْهَا وَأَنْصبُ.

لأَنَّ القَصيدَتَان تَتَّفقَان فِيْ البَحْر وَالوَزْن وَالقَافيَة، وَهَذَا مَا فَعَلَهُ شُكْري فَيْصَل؛ إذْ أَوْرَدَهَا ثَمَانيَةً وَعشْرينَ بَيْتًا مَطْلَعُهَا: "أَرَسْمًا جَديدًا من سُعَاد..." واخْتَتَمَهَا بـ"أَتَاني أَبَيْتَ اللَّعْنَ..."

وَقَفَ النَّابغَةُ عَلَى أطْلَال حَبيْبَته،